

كتاب طبقات المشائخ
للأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني
« القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي » *

بقلم : الحبيب الجنحاني

تعد كتب الطبقات مصدرا أساسيا من مصادر التاريخ الاسلامي في العصر الوسيط ، ولكن ليس لما تقدمه لنا من معلومات عن الحياة الدينية والفكرية في المجتمع الاسلامي خلال عصر من عصوره فحسب ، بل لما تحتوي عليه أيضا من مادة ذات طابع اقتصادي واجتماعي قلما هدف إليها المؤلف ، وهي مادة ذات أهمية بالغة ، يجهد اليوم ذوو النظرة الحديثة لتاريخ المجتمعات الاسلامية لجمع شتاتها في عناء شديد ، سعيا وراء تسليط أضواء جديدة على كثير من الجوانب الغامضة في تاريخ هذه المجتمعات .

وتزداد هذه القيمة أهمية حين تتناول كتب الطبقات علماء مذهب من المذاهب الاسلامية التي تعدّ السلطة المركزية أنصارها خارجين عن نظام الجماعة مثل معتنقي دعوة الخوارج في المغرب الاسلامي .

(*) انجز هذا البحث ضمن برنامج قسم التاريخ بمركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية (C.E.R.E.S.).

ومن هنا فلا تتعرض مصادر أهل السنة إليهم الا بقدر ما يتسببون فيه من مشاكل عسكرية وسياسية لأصحاب النظام السياسي المعتمد على المذهب الأرتودكسي في الاسلام .

ومن الملاحظ في هذا الصدد ان المصادر التاريخية البحتة قليلة جدا بين مؤلفات شيوخ المذهب التي وصلتنا ؛ فاعلمها في فقه المذهب ، أما الكتب التي تتضمن معلومات ذات طابع تاريخي فهي كتب الطبقات والسير ، وقد هدف مؤلفوها إلى تسجيل التقاليد العلمية داخل المذهب ، وتسلسل طبقات شيوخه ، وابرار دورهم بين علماء الاسلام . ويمثل هذا في حد ذاته أهمية ذات شأن ، لأنها تقدم لنا معلومات عن الحياة الداخلية للمذهب يرونها لنا أحد شيوخه .

وتزداد كتب الطبقات هذه خطورة عند ما نلمس أن هذه المعلومات تضم بين طياتها أخبارا ، أو إشارات دقيقة حول الجانب الاقتصادي والاجتماعي في الحياة اليومية للمجتمع الخارجي ، وهي معلومات نادرة في المصادر الاخرى التي تتعرض لتاريخ الخوارج في المجتمع المغربي خلال العصور الوسطى ، فبالرغم من الصفحات الطويلة التي خصصها المؤرخون القدامى للحديث عن الخوارج في المغرب وحركاتهم المختلفة مثل ابن الاثير ، وابن عذاري ، وابن خلدون ، فان كثيرا من المسائل تبقى غامضة في حياة الدول التي أسسوها ، ولا سيما في حياة المذهب بعد سقوط تاهرت ، وسجلماسة تحت ضربات جيش أبي عبد الله الشيعي « 296هـ / 909م » (1) .

وقد عرف المذهب خلال قرون من امامة الكتمان حياة نشطة في مناطق جغرافية متعددة من بلاد المغرب طبع الاباضيون اثناءها الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية بطابع خاص .

(1) راجع ابن عذاري ، البيان المغرب ، بيروت ، 1948 ، ج 1 ، ص 153 ؛ القاضي النعمان ابن محمد ، رسالة افتتاح الدعوة ، بيروت ، 1970 ، ص 236 وما يليها ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، 1966 ، ص 48 وما يليها ؛ المقرئ ، اتعاظ الخنفا ، القاهرة ، 1967 ، ج 1 ص 66 .

ومن هنا جاءت في نظرنا أهمية مخطوط طبقات المشائخ لأبي العباس الدرجيني رغم تأخر عصره نسبيا ، واهتمامه بقضايا المذهب أولاً وبالذات ، شأنه في ذلك شأن بقية كتب شيوخ الدعوات الدينية .

ان اهتمام هذه الدراسة بهذا المخطوط يكاد ينحصر فيما يقدمه لنا في طياته من معلومات قليلة موزعة هنا وهناك عن بعض مظاهر الحياة اليومية في مجتمع مغربي ذي طابع خاص ، فهو مجتمع إسلامي أكثر سكانه من البربر المسلمين. اضطبغت فيه العصبية القبلية بالدعوة الدينية الخارجية (2) .
المؤلف (3) :

هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني ينحدر من أسرة بربرية اباضية من قرية تميمجار بجبل نفوسة ، نزع جده الأعلى الحاج يخلف بن يخلف النفوسي التميمجاري إلى بلاد الجريد حيث أقام في ربض من أرباض نفطة ، ثم انتقلت الاسرة زمن والد المؤلف سعيد ابن سليمان إلى درجين السفلى الجديدة قرب نفطة ، وفي درجين نشأ أبو العباس ، وإليها ينسب .

والملاحظ في ترجمة أبي العباس انه ينتسب إلى أسرة شهيرة بين شيوخ المذهب وعلمائه ، فهو يحدثنا في مواطن كثيرة من كتابه عن ثقافة اسلافه ، وعن الدور الذي قاموا به في تاريخ الدعوة الاباضية ببلاد المغرب ، مبتدئا بعجده الاعلى الحاج يخلف بن يخلف ، وقد كان فقيها شهيرا عرف بالورع

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ، 1956 ، ص 282 وما يليها .

(3) انظر طبقات المشائخ للمؤلف نفسه ، ورقة 4 ب ، 51 أ - ب ، ورقة 149 وما يليها ؛ الشماخي ، كتاب السير ، القاهرة ، 1301 هـ ، ص 460 وما يليها ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ج 2 ، ص 144 وما يليها ؛

Tadeusz Lewicki, Les historiens, biographes et traditionnistes ibadites - wahabites de l'Afrique du Nord du VIIIe au XVIe siècle Krakow, 1962, p. 23-24.

والصلاح فذاع صيته بجبل نفوسة، وبلاد الجريد كلها (4) ، ولما ترجم أبو العباس لجده يخلف قال متحدثا عن السمعة التي كان يتمتع بها بين أهل المذهب وغيرهم : « وحدثني من لا أنهم انه كانت جماعة البربر ، وجماعات العرب من قبائل مختلفة ، ومذاهب متفرقة يقصدون الشيخ يخلف فيجتمعون عنده أفواجا يقضي بينهم في الجراحات وغيرها ، كلتهم راض بحكمه لا يرغب عنه أحد بمخالفة مذهبه ولا يرد عليه قوله (5) » .

أما في ترجمته لجده علي بن يخلف فانه يخبرنا بانه « فصيح اللسان ، ذكي الجنان ، كثير الاصابة والبيان ممن يقلد في علوم الادب وعلوم الاديان » (6) وقد عاش جده هذا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وكان يشتغل بالتجارة بين السودان وبلاد الجريد فنجدته سنة 575هـ/1179-80م مقيما في غانة ، وتبلغ به رحلته التجارية مدينة مالي حيث يكرمه ملكها المشرك غاية الاحرام، ويعتق الاسلام مع أهله ورجال مملكته على أيدي الشيخ علي ابن يخلف ، ثم يفرضه على سكان المملكة ، ويمنع دخولها على غير المسلمين ، ويقص علينا هذه القصة ذات النزعة الاسطورية مؤلف طبقات المشائخ حسبما بلغ إليه من روايات عن حياة اسلافه من شيوخ المذهب (7) .

ويعد جده الاصغر سليمان بن علي بن يخلف من مشاهير فقهاء المذهب ينظم الشعر في الحكم والمواعظ ، عرف بسخائه وورعه ، وكان كثير المال بكنومة ، ومن وجوه الوهبة بها ، ولما اجبر النكار الوهبيين على مغادرة

(4) طبقات المشائخ ، ورقة 152 ب ، 156 ب ؛ الشماخي ، سبق ذكره ، ص 453-455 .

(5) طبقات المشائخ ، ورقة 157 أ .

(6) نفس المصدر .

(7) انظر نفس المصدر ، ورقة 158 أ-ب . نشير هنا إلى أن علاقات الاباضيين ببلاد السودان كانت وطيدة طوال عصور مختلفة ، وقد قاموا بدور كبير في نشر الاسلام ببعض الجهات الافريقية ، ويخبرنا الدرجيني نفسه ان أحد كبار علماء الدعوة الشيخ عبد الحميد الفزاني كان قاطنا بالسودان ، ورقة 95 أ .

كنومة ، استحوذوا على ماله ، ونهبوا منزله ، محاولين اغتياله فلم يحاولوا مقاومتهم وتجنيد الوهبة ضدهم اتقاء اشتعال نار الفتنة (8) .

ويقول أبو العباس الدرجيني في ترجمته لشيخ النصف الثاني من القرن السادس الهجري : « وفي هذه الطبقة ادر كتهم يعدون جدي سليمان بن علي ، وجدي يخلف بن يخلف النفوسي » (9) .

أما والد مؤلف الطبقات فهو من المحدثين المعروفين ، واصبح من علماء المذهب في درجين السفلى الجديدة بعد ان انتقل إليها مع أسرته ، وقد عاش خلال النصف الاول من القرن السابع الهجري ، « ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السابعة مشائخ جيلنا ، فمنهم من صار إلى الله ، ومنهم الاحياء ، فمن الاموات محمد بن أبي جميل وسعيد بن معاد ، وإبراهيم ابن اسحاق ، وأبو سهل بن يحيى ، وأبو يعقوب بن عبد الله ، وميمون بن معدين ، وقد أشير علي بان انظم والذي في سلكهم » (10) .

وبعد تتبعنا لمشائخ هذه الاسرة الشهيرة في تاريخ الدعوة الاباضية في جبل نفوسة وقسطيلية خلال قرنين كاملين نصل إلى الشيخ أبي العباس نفسه لنلاحظ أن شهرته اقترنت بكتابه « طبقات المشائخ » ، وان المعلومات حول حياته قليلة ، وهي تكاد تنحصر فيما يرويه لنا من أخبار قليلة عن اسفاره الدراسية ، فقد رحل في مطلع شبابه إلى وارجلان للأخذ عن شيوخها الاباضيين سنة 616هـ/1219م (11) ثم نجده يواصل الدراسة في توزر سنة 633هـ/1235م (12) . وقد أقام مدة في جزيرة جربة حيث اشتهر بين العزابة فيها بمعرفته الواسعة في ميادين الادب واللغة والسير والفتة ، وقد اختاره عزابة الجزيرة لتأليف طبقات المشائخ حسب رواية « الجواهر المنتقاة » للبرادي (12) . اننا

(8) نفس المصدر ، ورقة 159 -ب ؛ الشماخي ، سبق ذكره ، ص 458 .

(9) ورقة 4 ب .

(10) ورقة 4 ب .

(11) ورقة 51 -أب .

(12) القاهرة ، 1302هـ ، ص 11 .

لا نعرف بالتدقيق تاريخ ولادته ، ولا تاريخ وفاته ، فقد عاش — كما رأينا — خلال النصف الاول من القرن السابع الهجري ، ويرجح انه توفي في النصف الثاني منه ، وكان والده في طليعة الشيوخ الذين أخذ عنهم ، ثم تردد على المراكز الثقافية للدعوة الاباضية للأخذ عن شيوخ العزابة فيها مثل وارجلان ، وتوزر ، وجربة . ونستنتج من تراجع اسلافه أنه كان ينتسب إلى فرقة الوهبة من فرق الدعوة الاباضية .

أما آثاره ، فاشهرها كتاب الطبقات ، ولكننا نجده يعد بين الشعراء الاباضيين في عصره وقد جمعت قصائده في ديوان ، وفي ترجمته لجده سليمان يقول : « وأما نظمه فقد سمعته من أبي وامتنع أن يروني شيئا من شعر أبيه ، أو شعر نفسه ، فإنه كان يقول لي : أنت أشعر مني ، وأنا أشعر من أبي » (13) .

ونستطيع أن نقول أخيرا إن أبا العباس الدرجيني كان يمثل ثقافة عصره ، وفي بيئة مذهبية معينة ، بعيدة كل البعد عن التجديد والابتكار ، يكاد ينحصر هدف الدارسين من أبنائها في نقل ثقافة السلف إلى الاجيال اللاحقة دون تبديل ، أو تغيير ، فهو يبدأ خطبة كتاب الطبقات متحدثا عن أسلاف المذهب قائلا : « فالله ينفعهم ، وينفع بهم في الدنيا والدين ، ويجعلنا لآثارهم مقتفين ، لا مبدلين ولا مغيرين » (14) .

المخطوط :

يعد طبقات المشائخ للدرجيني (15) من الكتب القليلة التي وصلتنا حول تراجع علماء المذهب الاباضي ، ومن المرجح أنه ألف بعد سنة 650هـ/1252م — وأصبح متداولاً بين العزابة بعد ذلك في المناطق الاباضية ، ولم ينتشر

(13) طبقات المشائخ ، ورقة 159 ب؛ انظر الشماخي أيضا، سبق ذكره، ص 460 وما يليها .

(14) ورقة 1 ب .

(15) يسميه الشماخي « طبقات الاشياخ » ، ص 178 .

كثيرا خارجها ، فقد عثر على بعض النسخ في بني مزاب ، وعنهما نسخت النسختان المعتمدتان في هذه الدراسة ، نسخة مجموعة المخطوطات الاباضية بكراكوفيا ، ونرمز إليها بحرف أ (15 أ) ونسخة المكتبة الوطنية بالجزائر ، ونرمز إليها بحرف ب .

ومن المعروف أن الكتاب لم ينشر بعد بالرغم من أهميته بالنسبة لدراسة حياة المذهب الاباضي في المغرب الاسلامي (15 ب) ، ولا سيما بعد سقوط الدولة الرستمية بتاهرت ، وانتقال الامامة من طور الظهور إلى طور الكتمان (15 ج) .

ان نسخة كراكوفيا هي النسخة الكاملة التي بين أيدينا ، وتحمل رقم 275 من مجموعة المخطوطات الاباضية التي جمعها المستشرق البولوني سمقرزفسكي (Z. Smogorzewski) اثناء إقامته في بني مزاب ، ونقلها إلى مدينة لفوف (Lwów) سنة 1926 ، ونقل ما سلم منها اثناء الحرب العالمية الثانية إلى معهد الاستشراق بجامعة كراكوفيا في بولونيا ، وضمنها «طبقات المشائخ» (16) ، وقد اشترى المخطوطة من القاضي الاباضي بغرداية محمد بن إبراهيم بوفارة ، وهي تحتوي على 160 ورقة ، قياسها 25 × 17,5 صتم ، وفيها 23 سطرا ، وخطها مغربي متأخر ، وهي مجهولة النسخ ، ولكنها منسوخة عن نسخة فرغ من نسخها سعيد بن قاسم بن بابا صالح بن محمد من ذرية الشيخ سعيد

(15أ) وهي النسخة التي نحيل عليها في هذه الدراسة .

(15ب) صدر الكتاب - بعد تسليم هذه الدراسة للنشر - بمدينة قسنطينة دون أي تحقيق علمي .

(15ج) يشير أبو القاسم البرادي الدمري (عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري) إلى ندرة طبقات الدرجيني في عصره ، وبعد أن عثر على نسخة سليمة من المخطوط تبين له أن كتاب الدرجيني يحتاج إلى تكملة فألف كتابا في الطبقات سماه «الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات» .
انظر : الجواهر ، طبعة حجرية ، القاهرة ، 1302 هـ ، ص 3 وما يليها .

(16) وقد تفضل مشكورا ببدنا بنسخة مصووة منها مدير المعهد المستشرق البولوني المعروف ليفسكي .

الجريبي اصلاً الداوي مسكناً في 19 من شعبان ، سنة 1341هـ/مارس-أفريل 1826م ، وهذه النسخة منقولة عن نسخة أقدم منها فرغ من نسخها يوم 9 من صفر سنة 1180هـ/جويلية 1766 ، وعن هذه النسخة القديمة نسبياً صحح المستشرق سمقر زفسكي نسخة كراكوفيا .

أما نسخة الجزائر الحاملة لرقم 505 بمكتبة جامعة الجزائر فهي تنحدر من غرداية حيث يشير إلى ذلك نص بخط موتيلسنكي (A. de C. Motylinski) في الصفحة الأولى بتاريخ 1884/1/2 ، وخطها مغربي رديء ، وفيها أخطاء كثيرة ، وتسقط منها كثير من الكلمات ، وقد فرغ من نسخها في أواخر شوال سنة 1300هـ ، وفيها 245 صفحة ، في كل صفحة 26 سطرا (17) . وهي نسخة ناقصة تبدأ في ورقة 56 ب من النسخة الكاملة بكراكوفيا . وبعد أن أوجزنا الحديث عن نسختي المخطوط نريد أن نتعرف أولاً إلى دوافع تصنيف الكتاب ، وثانياً إلى طريقة التأليف التي اتبعها الدرجيني في كتابه ، فهو يقول في خطبة الكتاب حول النقطة الأولى : « وأوجب طاعة من وجبت طاعته ، ولم يسع إهمال أمره واستطاعته أن اجمع من سير المسلمين من أسلافنا وأخبارهم ما تيسر جمعه ، وأضع في ذلك تصنيفاً ، وأحرز كل خبر مما يليه من كتاب الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر رضي الله عنه استخلص ذلك وانتقيه احتساباً لاجابة سؤاله ... » (18) .

(17) وقد تفضل الامتاذ محمد الطالبي مشكوراً بمدنا بنسخة مصورة عن مخطوط الجزائر .
(18) ورقة 1 ب . نذكر هنا أن أبا العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي يشير في خطبة كتاب السير إلى نفس السبب الكامن وراء تأليف الدرجيني للطبقات . يقول الشماخي : « وردت رسالة ممن اهمه أمرنا وانتفاء المطالعة على أحوالنا ، ومعرفة أخبار بلادنا ومعرفة ما نحن فيه من التبرج والاكتنان والظهور والكتمان ، والوقوف على مناقب الاخوان ، ونسب من سلف به من الزمان من الائمة اولى البقية والا حسان » (ص 3) . وينبغي ان نفهم إشارة الدرجيني ، وكلام الشماخي في نطاق العلاقات المذهبية والثقافية بين خوارج المشرق ، وخوارج المغرب منذ تأسيس تاهرت عاصمة الدولة الرستمية ، وقد استمرت هذه العلاقات في القرون المتأخرة بين المراكز الثقافية الاباضية ببلاد المغرب وانصار الدعوة الاباضية بعمسان .
راجع عن هذه العلاقات أيام الدولة الرستمية دراستنا عن مدينة تاهرت ، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، العدد 40-43 ، 1975 ، ص 7-54 .

ولكن البرادي يخبرنا في حديثه عن أسباب تأليف الدرجيني لطبقات المشائخ أن أهل الدعوة بعمان طلبوا من الحاج عيسى بن زكرياء أن يرسل إليهم أخوانهم بالمغرب كتابا يتحدث عن سير اسلافهم ، وقد وقع اختيار العزابة بجريرة على أبي العباس لتأليف هذا الكتاب المطلوب (19) .

أما طريقة تأليف الكتاب فقد قلد فيها الدرجيني من سبقه من كتاب التراجم ، ويمكن في هذا الصدد تقسيم طبقات المشائخ إلى جزئين ، جزء أول يعيد فيه كتاب « السيرة وأخبار الأئمة » لابني زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني ، فيصف لنا طريقته في مطلع الكتاب قائلا : « فاخذت في تهذيب الكتاب المذكور (يعني كتاب أبي زكرياء) ، واضيف إلى ذلك ما لا بد منه من خطبة وشعر غير مشهور ... وقد رأيت أن أقدم مقدمة تكون فراشا لكتاب تفهم منها ألفاظ اصطلاح عليها أصحابنا المتأخرون ، وفيها عند من لا يعرفها اضطراب ، ثم أثني بتسمية مشائخنا ، وذكر طبقاتهم خلفا عن سلف على ترتيب يأتي بيانه لئتم المقصود ، ويتالف ، ثم أجرد السيرة وانقلها من الكتاب المذكور على حسب ما وقعت فيه ، وما كان في ألفاظه خشونة نقلت معانيه فيكون تفهم ما سألت سهلا على قارئه » (20) .

أما الجزء الثاني ، وهو التأليف الحقيقي لابني العباس فانه أكثر أهمية حيث يقدم لنا معلومات غزيرة ودقيقة عن مشائخ طبقات المذهب في بلاد المغرب ، ويترجم لعدد كبير منهم لم يترجم لهم أبو زكرياء ، وقد اتبع في تصنيف رجال الطبقات ما فعله الشيخ الاباضي أبو عمار عبد الكافي فرتب التراجم على المثني من سني الهجرة ، وذكر الخمسين من كل مائة ، وقد أكمل الدرجيني ترتيب أبي عمار عبد الكافي الذي انتهى عند مشائخ الخمسين الأولى من المائة السادسة ، فذكر من اشتملت عليه الخمسون الثانية من المائة

(19) Tadeusz Lewicki, les historiens..., p. 24-25.

(20) ورقة 1 ب .

السادسة وهم الشيوخ الذين أخذوا عن آخر طبقة ترجم لها أبو عمار عبد الكافي ، ثم ذكر من اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السابعة ، « مشائخ جيلنا » ، كما يقول أبو العباس .

ولطبقات المشائخ أهمية كبرى من جوانب متعددة :

أولا - لأن طبقات أبي زكرياء لم تنشر بعد .

ثانيا - لأن المؤلف يترجم في القسم الثاني من كتابه لعدد كبير من شيوخ الدعوة لم يترجم لهم أبو زكرياء . (21)

ثالثا - لأنه اعتمد على مصادر اباضية قيمة تعد مفقودة لحد الان مثل مؤلفات محبوب بن الرحيل العبدى (من القرن الثاني للهجرة) ، او كتب أبي الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني (من القرن السادس للهجرة) . رابعا - لان أبا العباس يقدم لنا في طبقاته معلومات ضافية عن بعض الجوانب المهمة في تاريخ الاباضية ببلاد المغرب ، مثل النظام الدقيق للعزابة ، أو تنظيم شؤون الدعوة في منطقة جبل نفوسة على يد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بكر بعد انقراض الامامة الرستمية .

وحين نقارن بين طبقات المشائخ ، وبين كتب التراجم الاباضية التي ألفت بعده مثل كتاب السير للشماخي فاننا نجدها تعتمد عليه اعتمادا كليا مثل اعتماد الدرجيني نفسه على كتاب أبي زكرياء في القسم الاول من تصنيفه . وسنلمس في وضوح أهمية هذا المصدر الاباضي من خلال النماذج من المعلومات الجديدة التي يقدمها لنا عن الحياة الداخلية للمذهب ، وعن بعض

(21) أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني من شيوخ الاباضية بالمغرب عاش في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) ، وهو مؤلف كتاب « السيرة واخبار الائمة » الذي لم ينشر بعد . وقد ترجم لـ . مسكراي (E. Masqueray) قسما منه ترجمة رديئة نشرها مع تقديم وتعليق في الجزائر سنة 1878 ، ويتهمى النص المترجم مع ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (ورقة 46 أ من طبقات الدرجيني ، نسخة كراكوفيا) .

راجع عن أبي زكرياء وكتابه : ت. ليفسكي T. Lewicki, les historiens... p. 93-97.

الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في حياة المجتمع المغربي الاباضي في العصر الوسيط .

بعض المعلومات عن حياة الدعوة الاباضية من خلال طبقات المشائخ للدرجيني :

نذكر ، باديء ذي بدء ، ان هذه المعلومات عن تاريخ الدعوة ، وعن تطورها في بلاد المغرب ، وما ستعرض إليه من أخبار عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، جمعنا شتاتها من طبقات المشائخ ، يعد أغلبها جديدا بالمقارنة إلى ما نعرفه عن تاريخ الدعوة من خلال المصادر الكلاسيكية لتاريخ المغرب الاسلامي ، وأصبح بعضها معروفا بفضل الطبعة الحجرية لكتاب السير لأبي العباس الشماخي ، فهو ينقل فقرات مطولة بنصها من طبقات المشائخ .

وتبدأ هذه المعلومات عن دخول الدعوة وقضاياها في المرحلة الاولى ، فنجد الدرجيني ينقل لنا رواية عن الامام افلح عن أبيه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم « انه قال : أول من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بتيروان افريقية سلامة بن سعيد قال قدم علينا من ارض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتقبن على بعير فسلامة يدعو إلى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية » (22) .

ثم يقدم لنا معلومات دقيقة عن المرحلة السرية لانتشار الدعوة بين قبائل جبل نفوسة ، ومنطقة طرابلس ، ثم عن ظهورها ومبايعة أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري سنة 140هـ ، واخذه لمدينة طرابلس ، ورجوع والي أبي جعفر المنصور عليها إلى المشرق (23) ، وعن السياسة التي اتبعها أبو الخطاب أيام ولايته على طرابلس .

(22) ورقة 5 أ .

(23) ورقة 8-10 ؛ أنظر الشماخي ، سبق ذكره ، ص 124 وما بعدها .

وحين نبحث في المصادر المعروفة حول تاريخ المغرب عن مصير هذه الولاية ، ومصير أبي الخطاب المعافري بعد أن عهد أبو جعفر المنصور للقائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي بولاية إفريقية نجد ابن عذاري مثلاً يذكر لنا في « البيان المغرب » (24) خبراً قصيراً عن إلتقاء الجيش العباسي مع جيش أبي الخطاب قرب مدينة طرابلس ، وانتصار ابن الأشعث ، ومقتل أبي الخطاب . أما الدرجيني فإنه يقدم لنا وصفاً دقيقاً عن حالة الجيشين ، وعن الخطة العسكرية التي اتبعها ابن الأشعث وعن استراتيجية الموقع الذي تم فيه لقاء الجيشين بتاورغاء ، وهي مسيرة ثمانية أيام من طرابلس ، وعن أسباب تفرق جيش أبي الخطاب عنه ، ومنها سبب اقتصادي مهم ، وهو وقوع المعركة أيام الحصاد ، ولا سيما بالنسبة لجيش يتألف من أهل الدعوة من سكان المناطق الريفية ، ويضم قسماً من القبائل المقيمة التي تشتغل بالزراعة وتربية الماشية مثل قبيلة نفوسة (25) .

وبعد مقتل أبي الخطاب في صفر سنة 144هـ (761م) ، ودخول ابن الأشعث القيروان ، وفرار عبد الرحمن بن رستم منها متجهاً نحو المغرب الأوسط ، وقبل مرحلة ظهور الإمامة في تاهرت (161هـ/777-778م) تدخل ولاية الإباضية مرحلة جديدة يسميها الدرجيني ولاية الدفاع ، حيث يخبرنا أن الإباضيين اتفقوا على عقد ولاية الدفاع سنة 154هـ لابني خاتم يعقوب ابن لبيب الملزوزي الهواري ، ولي مدينة طرابلس في رجب سنة 154هـ ، ومكث فيها أربع سنوات .

وينقل لنا نصاً طريفاً في حديثه عن دور القبائل في نصرة الدعوة ، وتأسيس الإمامة بتاهرت حيث يروي عن الإمام عبد الرحمن بن رستم أنه قال : « إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة » (26) .

(24) ج 1 ، ص 72 .

(25) ورقة 12 ب ، 13 أ .

(26) ورقة 31 ب .

ومن المعروف أن الخلاف قد احتد في صفوف الاباضيين ، وانتشرت الفرق بينهم بعد أن أصبحت الامامة وراثية إثر وفاة عبد الرحمان بن رستم ، ومبايعة ابنه عبد الوهاب ، فظهرت النكارية والوهبية والخلفية ، وغيرها من الاتجاهات المذهبية داخل الدعوة ، ولكن الدرجيني يقدم لنا في ترجمة أبي الربيع سليمان بن زرقون (من نفوسة تابلديوت قرية بجبل تيرشوين) (27) معلومات دقيقة ليس عن هذه الفرق فحسب بل عن القبائل والجماعات ، والمدن والقرى التي ناصرت هذه الفرقة ، أو تلك (28) ، وهي معلومات ذات شأن في دراسة الهياكل الاجتماعية وتلونها المذهبي في بيئة من المجتمع المغربي لا نعرف عنها الشيء الكثير .

وفي ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (عاش في بداية القرن الخامس الهجري) نجد وصفا دقيقا وقيما لنظام حلقات المذهب الذي وضعه محمد ابن بكر ، والحياة اليومية للعزابة ، وهو نظام جديد لم يعرف أيام الامامة الرستمية بتاهرت ، ويقدم لنا هذا النص اخبارا اجتماعية مفيدة فضلا عن أهميته بالنسبة للحياة الدينية والمذهبية في المناطق الجغرافية التي عم فيها نظام العزابة ، وخاصة في جبل نفوسة ، وجزيرة جربة ، وبلاد الجريد .

وفي سياق تراجم شيوخ المذهب يفيدنا صاحب الطبقات باخبار مهمة عن الصلات المذهبية والفكرية بين خوارج المشرق والمغرب ، وعن مدونة إباضية أصبحت عمدة الاباضيين بعد تلف المصادر الاباضية بتاهرت ، كتب يقول : « وذكروا أن أبا غانم بشر بن غانم الخراساني خرج من المشرق متوجها إلى المغرب ليفد على الامام عبد الوهاب رضي الله عنه ومعه مدونته

(27) كان زميلا في الدراسة لابي يزيد مغلل بن كيداد المعروف بصاحب الحمار ، فقد درسا معا على ابن الجمعي ، وهو من أهل الدعوة قدم من بلاد المشرق تاجرا .

(28) ورقة 40 وما بعدها .

المشهورة التي رواها عن تلامذة أبي عبيدة رحمه الله ، وقد سمعها عنهم فاجتاز على جبل نفوسة فاستودع عمروس الكتاب المذكور ، وتمادى إلى تاهرت بعد أن استأذنه عمروس في إنتساخ الكتاب المذكور فلم يأذن له ، وعمروس حينئذ حدث ، فحسن عمروس الظن ، وحمله الحرص في العلم على انتساخه ، فواظبه وعكف على النسخ وأخته تُملي عليه ، وكان إذا جلس للنسخ في موضع لازمه حتى تدركه الشمس فينتقل إلى الظل ، والاصل في يد أخته ، وعينه في الكتاب لا يتحول حرصا في إحياء العلم فما رجع أبو غانم من تاهرت الا وقد أكمل عمروس انتساخ الكتاب ... وكان الكتاب في اثني عشر جزءا ، وفي اثر هذا كان ما كان من تلف ديوان تاهرت غصبا وحرقا ، ولو لا تمسك عمروس بهذا الكتاب لم يبق لأهل المذهب بجهات المغرب ديوان يعتمد عليه » (29) .

ومن المعروف أن الحياة الدينية الاباضية نشطت في منطقة جبل نفوسة بعد سقوط تاهرت ، وأمد خوارج المشرق اخوانهم الاباضيين بالمغرب بمساعدة في هذا الصدد .

يروى لنا أبو العباس الدرجيني في طبقاته أن الديوان في نفوسة اشتمل على تصانيف في المذهب ، وبعض كتب المذهب وصلت من المشرق فإذا هي نحو من 33 ألف جزء (30) .

ومما لا ريب فيه ان قدوم الدعاة من المشرق ، واهتمام خوارج المغرب بتأليف اخوانهم في المشرق ساهم كل ذلك في تعريب مراكز الحياة الفكرية في المناطق التي تقطنها القبائل البربرية المناصرة للدعوة ، ولا سيما في منطقة جبل نفوسة ، ولكن الدرجيني يعلمنا في مواضع مختلفة من كتابه عن استعمال اللغة البربرية ، وان بعض الدروس كانت تلقى بالعربية ثم يعقبها تفسير

(29) ورقة 93 ب ، 94 أ .

(30) ورقة 134 ب .

بالبربرية (31) ، ويفيدنا ان الاقوال والمواظ المنسوبة إلى أبي سهل الفارسي (من الطبقة السابعة) (32) هي مدونة بالبربرية ، وقد كان « فصيحاً بلغة البربر ، ولقد كان ترجمان جده الامام افلح » ، وجميع تأليفه بلغة البربر ، ويقول أبو العباس : « ولا ترمها ما لم تجد لها مترجماً » (33) .

هذه بعض المعلومات عن الحياة الداخلية للمذهب ، وطريقة تنظيمه ، وفرقه ، وغيرها من القضايا الخطيرة بالنسبة للدراسات التاريخية الحديثة جاءت متفرقة هنا وهناك في سياق طبقات المشائخ .

ونعتقد أن هناك معلومات أخرى تفوق في نظرنا المعلومات ذات الطابع المذهبي المشار إليها لندرته في المصادر القديمة من جهة ، ولأهميتها في التعرف إلى جوانب مبهمة في العصور الوسطى للمغرب الاسلامي ، ونعني تلك الاخبار ذات المحتوى الاجتماعي والاقتصادي ، وفي هذا الميدان تبرز أيضاً أهمية كتاب طبقات المشائخ .

فمن مظاهر الحياة الاجتماعية التي وجدنا حولها أخباراً في طبقات المشائخ مشاركة المرأة من سكان الجبل في التفقه في شؤون الدين إلى درجة الاجتهاد ، وهناك إشارات عديدة في الكتاب حول هذه النقطة (34) . ويحدثنا عن عادة الحج الجماعي لسكان الجبل قائلاً : « وذكر الاشياخ أن أهل جبل نفوسة كانوا في ذلك الزمان أكثر الناس حجاً فكانوا يحججون بنسائهم وذرائعهم حتى انهم ولد لهم في ركب ثلاثمائة مولود ذكراً فما ظنك بعدد من لم يولد له ذكر ، ومن لم يولد له اصلاً ، ومن ليس معهم نساء » (35) .

(31) راجع ورقة 124 أ ، ورقة 125 ب ، ورقة 126 أ ، وانظر أيضاً ورقة 147 ب ، 148 ب .

(32) « ليس بفارسي » ، وإنما هو نفوسي ولاشك أن أمه رستمية من بيت الامامة فغلب نسبها عليه ، واشتهر به » ، الدرجيني ، ورقة 102 ب .

(33) ورقة 103 أ .

(34) راجع ورقة 84 ب ، 89 ب ، 90 أ ، 92 ب ، 94 أ ، 111 .

(35) ورقة 94 ب .

ونرى عوائد اجتماعية تنتشر في بعض المناطق حين تضعف فيها الدعوة ، ويقلّ الدعاة ، فنجد أحد شيوخ المذهب يعود إلى منطقة اباضية بعد غياب فيجد أهلها قد فسدوا ، وتغيرت أحوالهم ، وليس هنالك ناه لهم ، فيحاول وعظهم قائلاً لهم : « إني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مرضية ولا ناهي عنها : إحداها أن نكاح السر فيكم فاش فإذا مر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشمأز قلبه فان زجرهما على الاجتماع في موضع الريبة قالاً انا متناكحان فكادت ان تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت ، والثانية ان أحدكم يطلق عبيده فلا يعو لهم ولا يموّنهم ، ويكلفهم طلب معاشهم فينطلقون في أموال الناس على غير رضا أصحاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحدكم يكون سارقاً ، وهو في محرابه جالساً ، والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب والتفرق ، فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم ، وطائفة منكم يقولون حضرينا وحضريكم ، ويهودينا ، ويهوديكم ، فلم يجدوا جواباً في مجمعهم ذلك الا أنهم تواعدوا ليجابوه فلما ابطأوا استرابهم فارتحل عنهم من يومه » (36) .

وهناك مسألتان مهمتان في التعرف إلى الحياة الاجتماعية في هذه المناطق المعزولة ، أو تكاد .

المسألة الاولى تتصل بالأقليات غير المسلمة المتعايشة مع النفوسيين الخوارج ، وهنا نجد إشارتين : الاولى تثبت أن أبا منصور الياس والي الامام بجبل نفوسة ، وأحد شيوخ الدعوة من أصل نصراني (37) ، والثانية تدل على اشتغال اليهود ببعض الحرف والتجارة في قرى نفوسة بالجبل ، فنجد في ترجمة أبي ذر أبان بن وسيم النفوسي أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل افتى فيها ، « الثالثة ان هن اذا عملن غزلاً قد صبغها اليهودي فمسسه رأين أن وضوعهن قد انتقض لمسه لأن اليهودي نجس فقال

(36) ورقة 41 ب .

(37) ورقة 96 أ .

لهن ايما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها الا غسل يديها ، وليس عليها إعادة وضوء » (38) .

أما المسألة الثانية فتتعلق بانتشار المجاعات ، وآثارها في نزوح القبائل ، فقد وقعت مجاعة في عهد الامام افلح بن عبد الوهاب ، وتكررت هذه المجاعات حتى اضطر السكان لأكل الميتة (ورقة 84 ب ، 185) .

فقد روى الشيخ أبو نوح صالح بن إبراهيم أن بلاد افريقية اصابتها سنة فاشتدت أحوال أهلها وعمدوا القوات حتى ضمت أهل البوادي وغيرهم إلى بلاد الجريد فانتهجت مزاة قابس ليمتاروا منها التمر بالدين والقرض (39) .

ومن الأخبار الاقتصادية القليلة التي يعثر عليها القارئ لكتاب الطبقات نوع العملة المنتشرة في جربة أيام الطبقة الثامنة ، فلم يعرف سكان الجزيرة آنذاك التبائع بالذهب . ويوجد معلومات عن مساهمة الخوارج في تجارة الذهب بين سجلماسة ، ووارجلان ، وجربة ، وعن نظام غراسة الارض في واحات الجريد ، فيقول الدرجيني : « ومما حدثني به أبي عنه رحمهما الله ان أهل قرى تقيوس كانوا يعملون جنات غابتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف ، ثم يؤدون العشر من النصف ، فكانوا بذلك في ضيق شديد ، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه » (40) .

وليس من المبالغة في شيء القول هنا إن مثل هذه المعلومات الاجتماعية والاقتصادية تعد من أهم ما تحتوي عليه كتب التراجم من خلال النظرة التاريخية الاقتصادية إليها، وهي مادة ثرية لا غنى عنها في تجديد منهجية دراسة التاريخ الاسلامي ، ولا سيما تاريخ الحركات الدينية - السياسية مثل حركات الخوارج ببلاد المغرب .

الحبيب الجنحاني

(38) ورقة 87 ب ، راجع عن وجود اليهود بين سكان قرى الجبل ورقة 88 ب ، 143 أ .

(39) ورقة 126 أ .

(40) ورقة 159 ب .